(19)

قوة الاستغناء

في روايته المهمة، التي نال بها أهم جائزة للرواية في إسبانيا (جائزة بلانيتا) عام 1990، يتحدث (أنطونيو جالا)- الكاتب الإسباني الشهير- عن حياة وسيرة (أبي عبدالله الصغير) آخر ملوك الأندلس، وقد جاءت رواية (المخطوط القرمزي) على شكل يوميات يقال إن بعثة فرنسية قد عثرت عليها عام 1931 في واحد من أهم مباني مدينة مراكش هو: جامع القرويين.

في أحد فصول الرواية يتحدث « أبو عبدالله الصغير » عن طفولته فيقول: «أتمنى أن تكون طفولة ابني أكثر فرحاً من طفولتي، أتصور أن الطفولة كنز ينتزعونه منا شيئاً فشيئاً، لذلك أتمنى أن يجد ابني أشخاصاً كالذين التقيتهم

obeikandl.com

خفية تقريباً، وهم من قربني من العالم، ولولاهم لما عرفت شيئاً، أو لكان ما عرفته عن الحياة الحقيقية قليلاً، فمنهم تعلمت لغة الصدق، والفضاء المتنوع، ونبض المشاعر الأولية التي هي الأنقى بعيداً عن قناع المجاملة التي تشوهها إلى حد الاقتلاع» .

وحينما نبحر في صفحات الرواية نعرف أن أهم الشخصيات التي قصدها الأمير بكلامه هم: مرضعته صبح، والبستاني الذي عمل في قصر جده ووالده فائز الجنائني، وعمه السمين جداً يوسف، وخادمه الزنجي مولى، وقد كانت شخصيات ثرية بالفعل، وخاصة الشخصية الأخيرة «الزنجي مولى»

لقد استوقفتني في «مولى» فلسفته في السعادة والحياة، خاصة عندما كان يقول للأمير عبدالله الصغير: (تعلمت من الأندلسيين أيها الأمير، أفضل درس: تقليص الحاجات من أجل تقليص العذابات التي يكلف إشباعها كثيراً .

وهكذا توصل مولى إلى أن الأشياء التي يحتاجها صارت قليلة جداً، ثم إن هذه الأشياء القليلة صار يحتاجها بشكل قليل جداً، وهنا وجد الرجل سعادته الحقيقية، حيث إن حقيقة السعادة ليست في أن تملك وإنما في ألا تحتاج ! وربما كان صراع البشر على احتياجات الدنيا نابعاً من ضعفهم الإنساني أمامها ومن عمق هذا الضعف تبرز كل سوءات الإنسان وشروره

وتناقضاته، وكلما نمت غابة الاحتياج في قلبه تباعد عن إنسانيته وكثر حديث الناس عن الأحقاد والحروب، والمتآمرين، والاحتيال والغدر والأقنعة ....! فلولا تهالك الناس على الحاجيات والأشياء، لما ضج الكثيرون بالشكوى من خيانة الأقرباء وغدر الأصدقاء.

حين تتأمل في دنيا الناس، وتتلفت حولك، ترى أشخاصاً يظنون في أنفسهم الذكاء والدهاء، مستعدين لأن يزرعوا الحياة حقولاً من الشوك والشك والأحقاد، في سبيل تحقيق احتياجاتهم هم، هم فقط لا غير حيث يؤمنون بحقهم الذي يجب أن يحصلوا عليه بأي طريقة ثم يمر العمر، فلا تثمر الحقول سوى البدايات، في رواية عزت القمحاوي «بيت الديب» يتجلى ذلك جلياً عبر عقود من الزمن يتصارع فيها الناس ضمن حيز مكاني صغير صنعوه وصار وطنهم وسموه «العش» وراكموا خلال السنين حكايات وصراعات وزيجات وأبناء بلا نهاية وأحفاد يسدون عين الأفق، لكن الذي تصارعوا عليه حين فتحوا أكفهم لم يجدوه أبداً .. بينما الحياة قطعت طريقها على أجسادهم كما ينبغي ومن دون رحمة ..

صدق سقراط حين قال: «من يستطع أن يستغني عن الضروري يكن من أقوى البشر» ! .

(20)

هكذا نأتي إلى الحياة

كيف أتينا إلى الحياة؟ وكيف عشناها، ماذا حققنا، وماذا خسرنا؟ ما الذي يمكننا القبض عليه بعد في متاهات الزمن الآني، وما الذي تسرب من بين الأصابع إلى غير رجعة؟ أسئلة صعبة تدفعنا لحظات العمر الحرجة أحياناً لأن نطرحها على أنفسنا.. سنوات العمر التي تمضي سريعاً، وربما أسرع مما كنا نتصور. بين يدي منذ عدة أيام كتاب من نوع السيرة الذاتية أو المذكرات لأحد أشهر الكتّاب في عصرنا، الكاتب التركي الساخر عزيز نيسين، الذي ترجمت أغلب أعماله إلى العربية، وعرف بحسه الساخر، ونظرته العميقة الخاصة للحياة، والتي استمدها من تجارب حياتية عاش من خلالها حياته

obeikandl.com

متأرجحاً بين القسوة والرخاء، فخبر الحياة بوجهيها الجميل جداً، والقاسي جداً، وفي سيرته الذاتية التي أصدرتها «الدار الوطنية الجديدة» في سوريا، وترجمها محمد مولود فاقي، يقدّم نيسين في الجزء الأول منها «ذكريات الطفولة» ما يعيد القارئ مباشرة إلى سيرة عملاق القصة الروسية مكسيم غوركي حينما كتب تلك الذكريات المفعمة بالحياة والزخم الإنساني والصور الحارة من خلال حكايات وشقاوات الطفل مكسيم مع جدته، ثم مع كل مفاصل الحياة في مراحل سنيه المختلفة، والتي سطرها في رائعته المعروفة «طفولتي». إن عزيز نيسين يقدّم في «هكذا أتينا إلى الحياة» جزءاً من طفولته، من ذكريات تلك الطفولة، بتفصيلاتها الكاملة من دون إخفاء ما يجب إخفاؤه، أو ما يتعمد الكثيرون غض الطرف عنه من العيوب والأخطاء والكذبات.. وهنا أيضاً يتداعى للذاكرة ذلك الشحرور الأبيض الذي رحل عن عالمنا، الكاتب المغربي محمد شكري حينما كتب «الخبز الحافي» وأثار ثائرة الكثيرين بصراحته الفجة! عزيز نيسين كاتب ساخر، وحين يسأله الناس: لماذا تمتزج دائماً؟ يجيبهم: لا أدري، ربما كانت هذه طبيعتي أو هي طريقة الحياة التي عشتها، وبالفعل فالإنسان لا يمكنه أن يصل إلى ما وصل إليه ككاتب بحجم عزيز نيسين إلا من خلال حياة حافلة بالدموع

والقسوة والسجون والخيبات.. كلنا جئنا إلى الحياة كي نعيش سعداء أكثر مما كنا نتصور.. هكذا يقول نيسين معللاً بأنه يبكي لأسباب يجهلها أحياناً!

في بداية مذكراته يبدأ الروائي التركي بتحية جميلة إلى أن يقول فيها: أمي يا أجمل الأمهات.. أنت أجمل الجميلات.. تزوجت في الثالثة عشرة.. وأغمضت عينيك عن الحياة قبل أن تعيشي.. أنا مدين لك. حينما كتب مكسيم غوركي عن طفولته، ظن أنها لن تهم أحداً، لكنها استوقفت كل القراء عبر العالم، لأن فيها شيئاً من كل واحد منهم، وحينما كتب نيسين ذكريات طفولته قال: «أعلم أن ذكرياتي لا تحمل أهمية، وربما تسترعي الانتباه لأنها تحاكي الكثيرين في طريقة عيشهم وكفاحهم»، وقد كان محقاً. يتحدث نيسين عن أشياء كثيرة مرت به عن مسالك قاسية وصعبة سلكها كي يعيش، تحت ضربات السياط وظلمات السجون والأحداث، ومع ذلك يقول: «إن كل الأحداث التي دونتها جعلتني مديناً لمجتمعي بوجودي المادي والمعنوي». إلا أن أولئك الذين ضربوا بسياط جبروتهم ونفوذهم الأبرياء والضعفاء والتعساء كي يرضوا غرور قوتهم ونفوذهم. أولئك السارقون الذين نهبوا سعادة الآخرين، لن يستطيعوا أن يقولوا «هكذا أتى نيسين إلى الحياة ولن يفارقها بإرادته».. هو فقط سيقول ذلك.

(21)

كلام الناس

في كل مجالسنا، نحن لا نتحدث إلا عن الآخرين، ولا ننتقد إلا الآخرين، ولا نلوك إلا أحاديث تخص الآخرين، من هنا يكتسب كلام الناس أسطوريته وقوته وضغطه، فمن منا لا يخشى كلام الناس، ولا يعمل له حساباً؟ كلام الناس، كما تقول الأغنية، لا يقدم ولا يؤخر، وهو لا يغني ولا يسمن، وهو قديم قدم الإنسان مذ عرف الكلام وجلس يتبادله مع غيره، ومن طرائف القول إنه إذا اجتمعت امرأتان فلا شك في أنهما ستتحدثان عن ثوب امرأة ثالثة لم تحضر اللقاء، وأظن أنه لا فرق في هذا المجال بين الرجال والنساء، فقد انتهى الزمن الذي صنفت فيه الثرثرة على أنها اختصاص نسوي بحث، لقد تفوق علينا الرجال بلا جدال!!

obeikandl.com

لكن من الذي يخاف من كلام الناس؟ أظن لا يوجد من لا يتقي كلام الناس حتى وإن لم يخف منه فإنه يتجنب قدر إمكانه أن لا يتحول مضغة بين الأفواه، فحين لا يوجد للناس شاغل يشغلهم يتحول «الحكي» عن الآخرين إلى شغل من لا شغل له، حتى خصصت شعوب معينة أوقاتاً من النهار لجلسات الشاي وتناول الكيك من أجل أن يثرثروا في سير الناس، فيجتمعون، يثرثرون ويتسقطون أخبار الناس في الجوار، من تزوجت ومن طلقت ومن أفلس، ومن قبض عليه لسبب غير معلوم، ومن تركها زوجها لأجل فلانة، ومن هربت خادمتها ومن ضبطت سائقها في غرفة الشغالة، ومن تزوجت شاباً يصغرها بـ 20 عاماً طامعاً في ثرائها وطامعة هي في الستر وربما أكثر!!

كلام الناس ليس مجرد طقس يمارسونه في مجالسهم وجلسات شاي الضحى أو الساعة الخامسة، إنه واحد من أقوى آليات الضبط الاجتماعي بالرغم من قسوته ولا موضوعيته، لكنه إرث إنساني تداولته البشرية على مر تاريخها، وشكل على الدوام مأزقاً اجتماعياً لكنه المأزق الوحيد الذي يريد الجميع الخلاص منه، ولكنهم لا يجرؤون، فطاقة المجموع أو المجتمع أكبر من أن نقذفها بحجر اللامبالاة ثم نمضي مطمئنين، كلام الناس سلطة مطلقة وحقيقية وضاغطة وهي كآلة تتحرك ذاتياً بلا توقف، وتنظر للناس من داخل

فقاعة بابتسامة صفراء.

المرأة الوحيدة التي غادرها زوجها، وظلت وحيدة تخشى كلام الناس، وتتحرك بحساب فالناس تراقبها نيابة عن زوجها، والمطلقة تخشى كلام الناس، وكذلك الأرملة والعاطل عن العمل كلهم يخشى كلام الناس، الفقير يخشى كلام الناس، العانس تخشى كلام الناس، والناس يخشون من بعضهم ومن كلام الناس.

جحا وابنه يخترلان القضية بهذه الأقصوصة: فقد كانا يمشيانِ مع حمارهما فانتقدهما الناس لأنهما لم يستغلا الحمارَ وسيلةً للنقل، فركب جحا وابنه على الحمار فانتقدهما الناس مرةً ثانية واتهموهما بأنهما عديما الرحمة! فكيف يركب اثنان على حمارٍ ضعيف فنزل جحا وتركَ ولده على ظهرِ الحمار فانتقدوا الناس الابن، وقالوا عنه: إنهُ ولدٌ عاق فنزلَ الابنُ وركبَ جحا، فقالوا عن جحا إنهُ لا يرحم وإنه قاسٍ على ابنه، فقام جحا وابنه وحملا الحمار وهما يمشيان، فضحكَ الناس عليهما لبلاهتهما، ومن هُنا ندركْ، أنَ إرضاءَ الناسِ غايةٌ لا تُدرك، وأن كلام الناس آلة تشتغل بلا توقف وبلا هدف في أحيان كثيرة، مع ذلك فهناك كلام ذو قيمة وضروري ولا بد من الإصغاء إليه وباهتمام لأنه قد يغير مصير مجتمع بأكمله .

(22)

الناس على هوى زمانهم

كثيرون ممن عاشوا سنوات شبابهم المبكرة أواخر الستينيات والسبعينيات يصفون كل ما كان أيام زمان باعتبارها سنوات الزمن الجميل، لاحظوا كيف يصف آباؤكم صداقاتهم القديمة وأصدقاء الماضي، إنهم غالباً ما يرفقون أسماءهم بلقب أصدقاء الأيام الحلوة أو أصدقاء الزمن الجميل أو أصدقاء أحلى أيام العمر، ولقد قرأت تقريراً مفصلاً عن حياة الفنانة اللبنانية صباح منذ عدة أيام كان أبرز ما وصف به زمان التألق وسنوات العنفوان التي عاشتها في مصر بسنوات الفن الجميل، وعندما يتحدث أهلنا عن عبدالناصر يصفونه بالزعيم الكبير الذي كان في الزمن الجميل ....

obeikandl.com

هل كان ذلك الزمن جميلاً إلى هذه الدرجة فعلاً؟ بحيث إن الفن فيه كان جميلاً ورائقاً ونبيلاً ويدعو للتحسر عليه عند مقارنته بفن اليوم؟ هل كانت الصداقات أحلى والأصدقاء أوفى والأخلاق أرقى والمدن أكثر تنظيماً والشوارع أكثر نظافة والسياسة أقل قبحاً وحتى الرؤساء كانوا أجمل في سنوات الستينيات والسبعينيات؟ عن نفسي أؤكد ذلك لأن كل الذين أعرفهم ممن عايشوا تلك السنوات بوهجها الفني وعنفوانها السياسي وتألقها العمراني يحكون قصصاً عن القاهرة وبيروت وتونس وسوريا وبغداد تجعلك تتمنى لو حظيت بفرصة الحياة في تلك المدن أيام المجد الذي كان ! ما الذي حدث حتى لم يعد الفن جميلاً بل مدعاة للهجوم والانتقاد دائماً؟ هل تغير الفن وأهل الفن والغناء وأهل المغنى أم أن الزمان وظروفه وصروفه هي التي تغيرت فعكسها لنا الفن فبدا قبيحاً كما الحياة التي يعكسها؟ أليس الإناء بما فيه ينضح، وإذا كان الفن مرآة تعكس الواقع أليس ما نراه ونسمعه انعكاساً لكل السوء والانحدار الحاصل في الذوق والذائقة والمشتغلين بالفن؟ من يتحكم بالفن اليوم؟ أية أموال تمول الأفلام والمسلسلات والبرامج؟ كيف يأتي المطرب إلى دنيا الطرب؟ أي حواجز ومحطات على المطربة أن تعبرها كي تحظى بفرصة الغناء وعبر أية وسيلة؟

الستار أكاديمي وسوبر ستار ونجم الخليج؟ من يقيم هؤلاء ومن يعطيهم جواز عبور لاختراق آذاننا وجرح عيوننا كل لحظة وتشكيل ذائقتنا؟

الراقصات يمولن مسلسلات تظهرن كبطلات أوائل ولا يهم أن تكون لديهن المقدرة أو الموهبة المهم أن يملكن المال الذي يشتري قصصا تفصل على مقاس أجسادهن ومواهبهن المتواضعة فأي فن جميل سوف تنتجه هذه المعادلة العجيبة، وشركات إطارات السيارات والشوربة والعصائر والمعجنات وصبغات الشعر ترعى وتمول معظم الأعمال الدرامية الأخرى، فأي فن وأي قيم سوف يتم تمريرها والحرص عليها من خلال تجار الشوربة وراقصات الملاهي؟ ونجوم الأكاديمية الموقرة ؟ نعم، لكل زمان دولة ورجال، ولكن أيضاً لكل زمان قيم ورموز وفن وإعلام، ولكل زمان فنانون يشبهون زمانهم، وأدب وأدباء وكتاب يكتبون ويبدعون لأهل ذلك الزمان ما يشبههم ويعبر عنهم، فالزمان يصنع أهله ويصوغهم أكثر مما يصنعونه هم أو يصوغونه، ولذلك فإن بيروت 1935 الجميلة المرتبة الأنيقة التي تشبه سويسرا كثيراً لا يمكن أن يعيش فيها بشر اليوم المتصارعون والمختلفون والمتشائمون على الهواء مباشرة لأتفه الأسباب، وكذلك قاهرة الخمسينيات والستينيات لاتشبه قاهرة اليوم المكتظة بالبشر والفقر والأزمات السياسية والاقتصادية.. كل زمان يشبه أهله، والناس على دين ملوكهم وهوى زمانهم كذلك .

(23)

تحية لامرأة من زمن الوفاء

هذه الأسطر القليلة هنا، تحية قصيرة لامرأة غادرت قبل أن تقول كلمتها الجميلة التي ظلت عالقة في المسافة بين الغيم والمطر، بين الروح والوحشة، بين الإغفاءة والحلم.. امرأة التقيتها في موسم صيف في بلاد بعيدة جداً عن هنا، جلجلت روحها في الأمكنة وفي ثنايا المسافات.. أحببتها كثيراً كما أمي.. كما امرأة من أزمنة الوفاء القديمة تلبست الأسى والاحتمال وطافت بزوجها المشافي البعيدة على كرسي متحرك باحثة له ومعه عن بصيص أمل وشفاء، وحين تعافى سقطت هي من فرط الإعياء ومكابدة المشقة، إنها المرأة التي التهمتها حكاية الوفاء. ففي صيف عام 2001، بدا الكون كله وكأنه

obeikandl.com

يتحضر لهزة عظمى.. حدثت بالفعل في الحادي عشر من الشهر الذي تلا الصيف مباشرة، في سبتمبر حيث ارتطمت طائرات خرافية بمبانٍ هائلة وراح في الحادث ضحايا ينتمون لدولة عظمى.. فاندلعت حرب عالمية لم تنته فصولها حتى الساعة.. في ذلك الصيف من ذلك العام كنا في ألمانيا، وتحديداً في ميونخ، أنا ووالدتي وأخي.. في شقة صغيرة في إحدى ضواحي المدينة الجميلة، في ذلك المبنى كانت السيدة «موزة» لا تُرى إلا داخلة أو خارجة تدفع كرسياً متحركاً يجلس عليه زوجها وحين تعرفنا عليها أنا ووالدتي كان قد مضى عليها طويلاً في تلك الشقة، وطويلاً جداً في مشوار البحث عن علاج.. وبعد لقاءين ربما صارت جارتنا الحميمة والمرأة التي خففت عن والدتي ليالي الغربة! أمضينا في ميونخ ثلاثة أشهر، وحين عدنا ظلت والدتي على صلة بها عبر الهاتف.. ثم حدث أمر ما، قطع الاتصال.. حاولت أمي التواصل وحاولت هي، لكن لم توفقا في مساعيهما.. ومع مرور الأيام بمشاغلها وتوافهها توقفت المحاولات وصارت أيام ميونخ كظلال غائمة في ذاكرة المرأتين.. حتى جاءني هاتف من ابنتها، إذ استدلت على رقم هاتفي من الصحيفة التي أعمل بها، وأبلغتني عن مساعي والدتها التي لم تتوقف يوماً في البحث والسؤال عنا.. وهنا فاض الأسى في قلبي،

فالوفاء في أيامنا صديق نادر كالخل الوفي تماماً! ولم تفلح المحاولات وبخلت الظروف بلقاء يجمعنا بها حتى كان عام 2007، حين علمت والدتي بعد انتقالنا لحينا الذي تسكنه حالياً، أن امرأة اسمها «موزة» تسأل عنها في أحد المراكز الثقافية التي أنشئت لتقديم خدمات تعليمية وتثقيفية لنساء الحي.. وحين التقت بها كانت أمام تلك المرأة التي برز وجهها لوالدتي من بين أيام صيف ميونخ عام 2001! ولعدة أشهر عادت صداقة تلك الأيام وتنفست روحها ارتياحاً بلقاء طالما بحثت عنه وفي كل مرة تأتي مع والدتي إلى منزلنا أكون أنا في الخارج، فأشعر بكثير من الحزن.. وتكرر الأمر.. وتكرر حزني حتى حسبت أن أمراً ما يهيئنا له القدر.. وذات مساء خيم حزن ظاهر على والدتي.. سألتها فأجابت كمن يمهد للجواب: موزة، ما بها؟! قلت بلهفة، قالت بصوت يشبه الأنين: ماتت ليلة البارحة، كيف؟ قالت بتسليم: لله الأمر من قبل ومن بعد.. جلطة! ولم أرها.. حسبت أن الحياة أكثر عدلاً من ذلك، حسبتها أكثر كرماً وبأن موسم ضحكات ونزهات ينتظرنا في ميونخ بعد أن استعاد زوجها شيئاً من عافيته.. لكن الزوج مضى في حزنه العميق.. ومضت هي بعيداً جداً، حتى أنني أخالها أخذت الوفاء معها ولم تترك شيئاً لأحد.. موزة.. أيتها المرأة الوفية الجميلة.. عليك السلام والرحمة .

(24)

حديث النساء، صمت الرجال .

مجازاً لا أكثر، ولشرح الفكرة أو إقناع الناس بها، اعتبر الكاتب الدكتور جون غراي أن الخلافات بين المرأة والرجل حادة وكبيرة إلى الدرجة التي يمكن القول فيها إن النساء جئن من كوكب «اختار لهن كوكب الزهرة» والرجال من المريخ، وبهذا الاستخدام المجازي وضح الكاتب الصراعات الشائعة التي تقع بين الرجال والنساء وصولاً إلى فهم أكثر عمقاً ولعلاقات أكثر اتزاناً وإشباعاً.. فالعلاقات المتزنة وحدها تقود إلى الامتلاء الحقيقي وهذه تحتاج إلى استبصار وتبصر وفهم. وفي واحد من أكثر السلوكيات الإنسانية احتياجاً للفهم والدراسة المستبصرة نتوقف عند الحاجة إلى

الحديث.. لماذا تحتاج المرأة أن تتحدث حين تكون متضايقة أو سعيدة.. ولماذا يصمت الرجل حين يكون متضايقاً إلى الدرجة التي ينسحب فيها تماماً من المشهد، وهو حين ينسحب إلى أين يذهب؟

حين يعاني الرجل من ضغط معين، وحين يكون متضايقاً لأي سبب.. فإنه غالباً ما يصمت منسحباً إلى كهفه الداخلي إلى صمته وتأمله ليتدبر أمر المشكلة، وهنا من غير المسموح لأحد بأن يقتفي أثره أو يدخل إلى كهفه بإصرار وبحجة المؤانسة أو القلق عليه أو تخفيف ما به.. هو لن يتكلم وهذا ليس موقفاً ضد أحد، لكن هكذا هم الرجال كما يقول جون غراي! إنه الدرس الأصعب على النساء، لأن من القواعد الذهبية لحياة النساء أنه يجب أن يتحدثن ليشعرن بالراحة، وليشعرن بقرب الأشخاص الحميمين لديهن، لأنه ليس من المودة ترك الأعزاء حين يكونون في حالة ضيق..

إذن فنحن أمام سلوك متناقض في شكله ودوافعه.. لكن مهلاً.. فإن ترك الرجل يدخل إلى كهفه ليس تخلياً عنه، إنما ذلك تقدير لطريقته في معالجة ضيقه وهو سرعان ما سيخرج وسيكون على ما يرام لأنه لا يستطيع أن يمكث طويلاً لوحده! في حالة الضيق أو الوقوع في ورطة أو الإحساس بالإحباط نتيجة ظروف الحياة والعمل و.. فإن المرأة تحتاج إلى رعاية

ومساندة، والأكثر فإنها تحتاج لمن يستمع إليها وتحتاج إلى أن تتحدث من دون توقف.. هذا وحده كفيل بأن يجعلها أكثر توازناً وراحة.. بينما أي توجيه أو رعاية مباشرة للرجل يجعله أكثر توتراً.. فإذا كنت مع زوجك أو شقيقك مثلاً في مشوار معين لحضور حفلة أو زيارة مكان ما، وضللتم الطريق.. فإن الرجل هنا يشعر بورطة كبيرة تجاهك، إنه تربى على أنه الرجل الذي يحميك ويقودك إلى بر الأمان دائماً فكيف يضل ويعجز أمامك، هنا فإن أي تدخل منك أو أية نصائح بأن يقف ويسأل أحداً أو أي شيء من هذا القبيل سيقابل بالرفض أو الصمت.. دعيه فإنه سيتدبر أمره ليشعر بأنه قادك فعلاً لبر الأمان، أما المرأة فإنها إذا كانت في مواجهة موقف مشابه فإنها وسريعاً جداً، ستتوقف عند أقرب محطة وقود لتسأل أو ستشير إلى أي سيارة أجرة أو حتى سيارة عادية للاستفسار!! أحياناً يعامل الرجال النساء في هذه المواقف على أنهن يشبهن الرجل في السلوك نفسه، وهذا ما يضايق المرأة.. الرجل حين يجد المرأة متضايقة يسكت عنها ليعطيها المجال– مثله– لتتدبر أمر ضيقها، هذا السلوك تفسره المرأة بأنه تجاهل وعدم اهتمام، بينما يعتبره الرجل تقديراً منه لحالتها.. هنا تكمن معظم الالتباسات!! يقول الدكتور جون غراي «بينما كنت أناقش هذا الموضوع في إحدى ندواتي

أدلت أمريكية من أصل هندي «الهنود الحمر» بقولها إن الأمهات في قبيلتها يرشدن الفتيات المقبلات على الزواج بأن يتذكرن أن الرجل إذا كان منزعجاً أو يعاني ضغطاً نفسياً فسينسحب إلى داخل كهفه.. ويجب عليها أن لا تأخذ الأمر بصفة شخصية، فهذا لا يعني بأنه لا يحبها.. إنه سيغيب قليلاً لكنه يطمئنها بأنه سيعود، لكن الأهم هو أن هؤلاء الأمهات حذرن الفتاة المقبلة على الزواج بأن لا تلحق به إلى كهفه، فإن فعلت فإنها عندئذ ستحرق من قبل التنين الذي يحرس الكهف»!.

التنين هو الغضب أو ردة الفعل غير المتوقعة التي تفاجأ بها المرأة التي تعتقد أن إصرارها على معرفة سبب صمت الرجل سيقابل بالتقدير.. فإذا ما يحدث هو العكس!! وفي المقابل فإن على الرجل أن يفهم أن المرأة قادمة من كوكب الجمال فينوس.. هي لا تطيق الضيق محبوساً في دواخلها وليس لها كهف تلجأ إليه سوى اللجوء إلى من تحبه وعليه فيجب أن يتفهم حاجتها للحديث!

obeikandl.com

(25)

هل نعيش كما نتمنى

حينما أتلفت حولي، أرصد تفاصيل المكان الذي أسكنه، البيت، الشارع، الحي، شطر المدينة التي يقسمها البحر إلى قسمين متقابلين ومتباعدين جدا في الوقت نفسه، أتأكد بأن هذه المدينة ترزح تحت أثقال من الحكايات والقصص والمرويات، كل منا في هذه المدينة – كما في كل مدن العام – لديه حكايته الخاصة التي قد تتقاطع مع حكايات أخرى كثيرة لو أتيحت الفرصه لقصها في وقت واحد، وربما تتعايش معها كما تتعايش قضبان محطات القطارات جنباً إلى جنب ومحتفظة بالمسافة نفسها دائماً، حينما أطل على المسافة التي مشيتها طويلاً في هذه المدينة ينتابني ذلك الهاجس الغريب : إلى

obeikandl.com

أي درجة نعيش حياتنا في كل تجلياتها كما نتمنى فعلاً ؟

دائماً لدينا ما نريد فعله وتحقيقه لكن الوقت لا يتسع له، لدينا أسفار مؤجلة، طموحات مؤجلة، أنشطة مؤجلة، قراءات مؤجلة، أشخاص رائعون نود لقاءهم بقليل من السعي تجاههم لكننا أيضاً نؤجل تلك اللقاءات، وفي المقابل نسأل مؤجلة إلى متى؟ في مذاهب ومعتقدات مختلفة فإن الحياة تكرر نفسها، أعني عقيدة التقمص، التي تمنح الإنسان فرصة الحياة مرة أخرى في زمان آخر وفي أجساد وظروف مغايرة، نحن لا ننتمي لهذا النوع من الاعتقادات، التي عبر عنها بطل رواية قرأتها بعنوان « سرمده » حين قال : ما قيمة الحياة إذا لم تكرر نفسها أكثر من مرة؟ مع ذلك فنحن نؤجل حياتنا ونعلم يقينا بأننا لن نعيش سوى حياة واحدة !!

سأسر لكم أمراً : أحياناً كثيرة أقول لنفسي هل كان من الأفضل لي لو أنني سافرت ودرست في جامعة السوربون بمدينة باريس تماماً كما حلمت عندما كنت في المرحلة الثانوية متأثرة برواية البؤساء لـ فيكتور هوجو؟ فماذا لو اقتفيت أثر تلك الأمنية يومها هل كان شيئاً مما يحصل لي اليوم سيكون؟ هل كنت سأكتب مقالاً يومياً ربما يجده البعض مملا وأراه أنا نهاية العالم؟ هل أعرف شيئاً عن نهاية هذا العالم أصلاً؟ لا أدري أين نهاية العالم لكن أمي

مصرة على أنها عند حواف سور الصين العظيم بينما لا زلت أحلم بأن أرى وألمس سقف العالم وأنا أقف في التبت !!

في أحيان كثيرة أنظر لحكايات بعض الصغار الذين يصرون بعناد لا طاقة لأحد على الوقوف في وجه أحلامهم التي يريدون، أتحدث هنا عن أحلام بحجم مسارات وخيارات حياتية : كالدراسة، السفر والهوايات، الأصدقاء وشريك الحياة، لطالما وصفنا أهلنا بالمطيعين والمهذبين جداً، لأننا كنا لا نعترض ولا نصارع أو نصر على أحلامنا وطلباتنا وعلى ما نريد عندما كنا صغاراً وحتى حين كبرنا ! كأننا كنا مشغولين بتحقيق أمنيات الغير، أتساءل الآن : هل كنا نعي أحلامنا والحدود التي تتيحها لنا تلك الأحلام في تكوين عوالمنا وحياتنا كما نريدها؟ نحن ننسى أن الأحلام بحاجة ماسة إلى وعي وإلى حرية . حين أطل على كل المياه التي جرت تحت جسور المدينة وحياتي أتمنى لو أنني تعلمت الطهي بحسب بعض الثقافات لأجول في تلك البلدان، وأجدت الكثير من اللغات فلدي ولع بالترجمات، وسافرت إلى كثير من المدن لأقابل العديد من الأشخاص الرائعين، ومارست التصوير أو الرسم مثلاً، ليست الانشغالات هي ما منعني من ذلك ولكن يبدو أن السير في الطريق الخطأ واحد من أكثر خطايانا في الحياة .

(26)

ومن الصيف .. ما قتل

في الصيف، في كل مواسم الصيف في العالم تسخن درجة حرارة الجو، وترتفع الرطوبة ويصبح الطقس سيئاً، لكن سوء المناخ حالة نسبية، فالحر في بلادنا يختلف عن حر الصيف في بلاد الشمال، وحين يكون الصيف حاراً ورطباً إلى درج اللزوجة الخانقة عندنا ولا نجد له حلاً سوى السفر، يهرع الناس في أوروبا إلى البحيرات وحمامات السباحة للتمتع به، وإذ تسير في طرقات الريف الأوروبي المعتدل المزاج والمناخ، فإنه من دواعي دهشتك أن يتخفف الناس هناك من ثيابهم إلى درجة العري تقريباً لأن الجو حار – بحسب تعبيرهم – والشمس تستحق أن يستلقوا تحتها لتستقبلها كما ينبغي

أجساد غارقة في عريها وبياضها الناصع .

الحرارة تقلب المزاج، والحر الخانق يقلب توازن الجسد ويصيب الدماغ بالصدمة والدوار، ولا علاقة للأمر بمكان ولادتك، فقد تكون من مواليد خط الاستواء لكن الشمس إذا تسلطت على دماغك بشكل مؤذٍ يمكنها أن تودي بك أو تجعلك طريح الفراش أياماً، وقد طرحتني الشمس ثلاثة أيام على فراش الفندق حين كنت أقضي إحدى إجازاتي في بروكسل ببلجيكا ذات يوم من صيف عام 2003، ولذلك فإنني أتجنب الشمس في أي مكان منذ ذلك التاريخ الذي عرفت فيه سر العلاقة السيئة بين صحتي ومزاجي وأشعة الشمس الحارقة .

تحدث عالم الاجتماع المعروف ابن خلدون عن تأثير المناخ على طباع الشعوب وأمزجتهم وأعمالهم وأنشطتهم، حين تنقل بين الأقاليم ووجد كيف أن المناخ البارد والمعتدل يؤثر في الناس فيولد فيهم حباً للعمل والنشاط وأقبالاً جميلاً على الحياة وأمزجة صافية أحياناً وباردة أحياناً أخرى بينما تجد أمزجة البعض شبيهة بتفجيرات ألعاب نارية !!

لا نلام إذا رحلنا صيفاً باتجاه الشمال بحثاً عن نسمات باردة، وطلباً لمناخات لا نتصبب فيها عرقاً ولا نختنق رطوبة، ومن دون أية مبالغة أو

سلبية فمناخنا لا يطاق صيفاً ومن قال غير ذلك فهو أحد شخصين إما أنه من غير هواة السفر والترحال بالمطلق وإما أنه يكتفي بمكيفات المنزل حتى إشعار آخر يصير فيه السفر ممكناً .

قلب مزاجي نهار البارحة فمنذ السادسة صباحاً والشمس في كامل عافيتها كمن كانت تستعد لكل هذا العنفوان الحارق طيلة الليل، صحوت بمزاج سيئ، لا طاقة لي على الحديث أو حتى تناول الطعام، كنت كمن مر عليه اعصار أو كأنني لم أنم منذ أيام، وحين أرحت جسدي على أحد كراسي ذلك المقهى الصغير القابع في ظل الكنيسة القديمة بوسط الساحة فاجأني اتصال إحدى صديقاتي تخبرني أنها على وشك إنهاء علاقة حميمة تربطها بشاب كانا قد اتفقا على الزواج، وإن مشادة كلامية مفاجئة بينهما قادت لاشتعال الموقف وتطور الأمر إلى اتخاذها قراراً بإنهاء الأمر برمته .

جعلتها تقول كل ما عندها فقد كانت تتحدث كمدفع رشاش حدة وسرعة، وحين انتهت قلت لها، إنه الطقس يا عزيزتي، الحر القاتل الذي يشعل الأعصاب ويلخبط الأمزجة ويجعل الإنسان لا يكاد يطيق نفسه، ونصحتها بأن لا تبدأ علاقة في أول الصيف حتى لا تكون كسحابة صيف كاذبة، ولا تنهي علاقة قائمة في الصيف لأنه قرار غير حقيقي قد اتخذه الحر نيابة عنا من دون ان نشعر لشدة وطأته على أرواحنا وقلوبنا وأجسادنا !!

(27)

ليس مجرد فنجان قهوة

يحلو الجلوس على مقاهي الأرصفة المفتوحة، تلك المقاهي التي تميز مدن أوروبا وقراها صيفاً وأحياناً شتاء، حيث تفتح للجالس فيها فضاء المكان ليطل من حيث يجلس على مشاهد وحكايات كثيرة وأصوات وألوان، فضاء الشارع المقابل للمقهى حيث اخترت ركنك المفضل وجلست، عالم جدير بالتأمل ويستحق الانصات لكل ما يعبر فيه، لذلك تقرر اليوم أن تجلس بهدوء وبصحبة كتاب وفنجان قهوة تحتسيه على مهل مستمتعاً به أكثر من كونك محتاجاً له .

تنحني الطرقات كلها هنا شوقاً لبهاء اللون الأخضر، فكل ما يحيطك

obeikandl.com

أخضر ملون وبهي، الطرقات، الجبال، مداخل البيوت البيوتية التي تذكرك بأغاني فيروز وشرفات الفنادق الصغيرة المطرزة بأجمل أواني الورد، وتلك المقاهي البسيطة جداً التي لا يمكن أن تفتقدها حتى لو كنت على ارتفاع 3000 متر، كل تلك التفاصيل تملؤك بالراحة والبهجة وتشعرك بأنك تقضي إجازة حلوة يمكن أن تحسد نفسك عليها .

الجمال يعلم الذوق، والذوق ينتج تفاصيله المبهجة والصغيرة جداً، مقاعد الحدائق الصغيرة، زينة أواني الزرع، سياجات المداخل المنمنمة، أغطية طاولات المقاهي، وسائد الكراسي الضاجة بفراشات وزهور ملونة، محلات التذكارات البسيطة ،أشياء لا تحصى تأخذك اليها وتعيدك كطفل مملوء بالدهشة لا أكثر أنت الذي اعتدت زمناً على افتقاد هذه النعمة، نعمة الوقوف دهشة أمام أي شيء !!

تقرأ في كتاب «النبطي» للمصري يوسف زيدان فيأخذك إلى عوالمه الخاصة، عالم المخطوطات التي يرأس دائرتها في مكتبة الإسكندرية العريقة، والتي من عجائبها وأسرارها وذخائرها استوحى زيدان رائعته « عزازيل» وها هو يتحفنا مجدداً برواية أخرى تسير على المنوال نفسه حتى وإن طرقت عوالم أكثر فتنة عبر شخصية النبطي والفتاة القبطية مارية، وإذ تقرأ مابين

يديك تشعر بأن الحياة كلها كتاب مفتوح على أغرب الحكايات وأن لا شيء يولد الغرائبية كهذا الإنسان في كل ما يصدر عنه، وأن الإنسان مهما كان بسيطاً من وجهة نظرك إلا أنك بمجرد أن تلج عوالمه التي لم يكشفها لأحد، عندها انصت جيداً فقد تعثر على حكاية أسطورية بشكل أو بآخر .

حيث اجلس بدا رجل يتوكأ على عكازيه بعد أن فقد إحدى ساقية بينما كان أبناؤه يتحلقون حوله وغيمة حزن تخيم على المسافة بينه وبين زوجته، بينما بدا ذلك الشاب وكأنه يتلهى بتقليب صحيفته العربية التي بين يديه من دون أدنى شهية للقراءة في الوقت التي غابت زوجته عما حولها غائصة في عالم رسائل البلاكبيري، أما تلك المرأة الباذخة الجمال فقد بدت بحجابها الأنيق أكثر فتنة من أية امرأة أخرى في المكان مع ذلك فقد كانت غافلة كلية عما سببته فتنتها من تأثير على أولئك الشباب الذين تسابقوا في وقت واحد للحصول على المقعد الوحيد الذي بقي فارغاً بالقرب منها، تلك الصبية التي لم تترك لوناً لم تضعه على نفسها انهمكت بالحديث بصوت عال جداً لفت كل زبائن المقهى بينما لاحت ابتسامة سخرية على طرف بعض الأفواه !!

عالم المقهى غني جداً بالحياة والتفاصيل ،وإذ تسترخي في مقعدك فأنت بازاء كتاب مفتوح على عوالم حقيقية تحتاج منك أن تقرأها بقلبك لا بعينيك، وأن لا تكتفي باحتساء فنجان القهوة وتمضي فارغ القلب .

(28)

طقس أبيض

عندما ذهب الكاتب الراحل أنيس منصور لحضور مهرجان سينمائي في طشقند، وكان الوقت في عز شتاء آسيا، لم يكن الكاتب يتوقع ذلك المناخ القاري حيث تهب رياح الجليد من سهوب سيبيريا القاسية، وما فاجأه أكثر كما كتب أنه وصل مساء ونام ليلته سريعاً ليفتح عينيه مطلاً من نافذة غرفته على بياض بلا نهاية، لقد غطى الثلج الذي ظل ينهمر طيلة الليل كل شيء في المدينة حتى خيل إلى الكاتب أن الحياة برمتها قد اختفت تحت ذلك البياض، وإذن فماذا سيكتب للجريدة التي تنتظر مقالته كالمعتاد كل مساء؟

كانت تلك واحدة من الورطات التي قد يجد كل كاتب مقال يومي نفسه فيها، أن لا يجد ما يكت للغد، لكنها تظل مشكلته وحده من دون العالمين

وعليه أن يتصرف، أن يتحايل، أن يخترع شيئاً يكتبه، أن يستنهض الحياة من تحت الجليد أو ينبش في الصقيع عن بقايا نبض ليكتب شيئاً، ظل يتأمل امتداد الأبيض على كل مكان، وظل حبيساً في بهو الفندق، وظل فكره مصوباً باتجاه فكرة واحدة أو سؤال لا غيره : ماذا يكتب، حتى أصابه صداع كاد يفجر رأسه .

أمام الطبيبة التي عاينت حالته وعرفت مباشرة أنه لا يعاني من أي عأرض صحي، شرح الوضع الذي وجد نفسه فيه، وطلب منها حبتي دواء على الأقل، فهي لم تستطع أن تقنعه بأنه يعاني من التفكير في المقال لا من الصداع، لكن أنيس منصور لم يرد أن يعترف بأن هذه الفكرة هي السبب، أخذ حبتي الدواء، ثم جلس يكتب ما مر به حتى اللحظة التي خرج فيها من غرفة الطبيبة التي كانت هي الأخرى كبياض الثلج .. وهكذا كتب مقاله في النهاية !

أحياناً تقف التكنولوجيا حائلاً بينك وبين الكتابة، كما حدث معي بالأمس فأربكت الأخوة في التحرير وفي الاستماع، من دون قصد مني، لقد غادرت دبي لأربع وعشرين ساعة، وفي الطريق اكتشفت بأنني نسيت هاتفي ولم يكن هناك مجال للعودة لأخذه، كما أن المكان الذي حللت فيه لم يكن به شبكة اتصال عبر الإنترنت، وحين خرجت أفتش عن مقهى

للإنترنت، أو واحدة من المقاهي التي تعطيك رمزاً معيناً للدخول عبر اشتراكها عند شرائك فنجان قهوة ب 15 درهماً، لم أجد أثراً لا لكاريبو ولا لمقهى ستار بكس فقررت أن لا أحمل توجهاً سلبياً ضد هذا النوع من المقاهي لأنه يقدم لنا خدمات في منتهى الأهمية أحياناً من دون أن نشعر بقيمتها إلا حين نفتقدها !!

حين تعيش في مدن تقدم لك كل الخدمات بيسر وسهولة تامتين، فأنت تظل متذمراً بلا سبب، مع انك تمتلك كل شيء تقريباً، وأول ما تمقته وتتذمر منه هو سطوة ونفوذ التكنولوجيا، لكنك بمجرد ان تبتعد عنها تعرف قيمتها أولاً، وتتيقن كم أنك تحولت إلى فأر ميكانيكي، يعمل بالألياف البصرية، وباشارات لاسلكية تطوف بك العالم بسرعة الضوء وبواسطة الأقمار الاصطناعية، لكن كل ذلك قد يتوقف كله فتجد نفسك ولديك ماتكتبه لكن ليس لديك ما تتراسل به، والحالة أرحم بالتأكيد من حالة جنرال جارسيا ماركيز الذي ظل يتردد زمناً طويلاً على مكتب البريد سائلاً عن رسالة اكتشف بعد عمر أنها لن تصل وأن ليس هناك من يكاتبه !!

(29)

فلفل ... السعادة !!

يحكي أحد الكتاب عن تجربة شخصية مر بها وضمنها أحد كتبه حيث يقول (أنتوني روبنز) بأنه خطرت في باله ذات يوم فكرة السفر إلى جزر فيجي الرائعة، و بالفعل أخذ زوجته وانطلق بها ليقرر فيما بعد إذا كان بإمكانه شراء منزل هناك أو القيام باستثمار معين، وعندما حطت به الطائرة، وتجول في إحدى الجزر التقاه رجل من أهل الجزيرة وحياه بحرارة ثم اقتاده إلى كوخ كبير يعج برجال يتناولون مشروباً غير كحولي ويضحكون بصخب طوال الوقت، ما أثار استغرابه كثيراً!

ولكي يفهم سر استغراقهم في المرح بادرهم بالسؤال: «ما هو الهدف من

obeikandl.com

الحياة من وجهة نظركم؟) فاجأهم السؤال لكنهم أجابوه بصوت واحد: أن نكون سعداء بالطبع، وهل هناك شيء آخر؟!» لم يعلق على جوابهم لكنه شاركهم فرحهم وضحكاتهم وشرب ذلك المنقوع السيئ الطعم الذي كانوا يشربونه باستمتاع، وعاش معهم ساعات اعتبرها من أعمق وأقوى التجارب التي مرت به وبزوجته، أن تعيش مع أناس لا تعرفهم ولا يعرفونك، ولا يريدون منك شيئاً سوى أن تشاركهم سعادتهم التي يشعرون بها وفق رؤيتهم للحياة.

وبالفعل فهكذا هي الحياة نعيشها وفق ما نرسمها في أذهاننا وبحسب ما يعيننا عليها من يشاركوننا هذه الحياة، أهلنا وأصدقاؤنا ومجتمعنا بشكل عام، نحن نصنع حياتنا، ونعيش أفراحنا وأحزاننا ومشاعرنا وفق ما نؤمن وما نقرر، فمعظم الناس سعداء بقدر ما يقررون ذلك، وتعساء بقدر ما يريدون ذلك، ومع ذلك فنحن أيضاً نفصل الحياة على طريقتنا ونعيشها أو يجب أن نعيشها كما نريد لا كما يريد الآخرون.

نحن نفرح على طريقتنا، ونحزن على طريقتنا، ونحب على طريقتنا أيضاً، فلا توجد قوالب لذلك، ولا مقاييس متداولة وثابتة لممارسة السعادة أو الحزن أو التعبير عن الحب، إنها حقنا في ممارسة إنسانيتنا على الأرض،

هذه الإنسانية الشفافة لا يعبر عنها سوى الجمال والمحبة، وليس الكره والبغض والخلاف لمجرد الخلاف أو لمجرد ان أفكاراً غرست في داخلنا بطريق التلقين. جاءتني رسالة صباح الأمس من شاب يقول فيها بأنه (يكره) الاحتفال بيوم الحب، ويكره الذين يحتفلون به ويكره...! وعجبت من قدرته على استخدام الكراهية بهذه الطريقة المجانية !

يمكننا بكل حرية أن نحمل آراءنا الخاصة بنا وأن نؤمن بها وندافع عنها، ذلك يمكن أن يتم بالصراخ ونفي الآخر، ويمكن أن يكون أيضاً، بهدوء ومحبة، واقتراب من الآخرين والانصات اليهم، لأن الاختلاف والايمان والحرية تأكيد على حميمية الإنسان وحقه، لا على سعيه نحو السوء والقسوة، فماذا استفادت البشرية من القسوة والكراهية سوى الحروب والدمار والأشلاء ؟؟

سكان جزيرة فيجي كانوا يشربون منقوعاً من جذور الفلفل الأسود الكدر، ويستمتعون به ويضحكون طوال الوقت مع نسائهم وأطفالهم ويرون أن الحياة لا تعني سوى السعادة، هل يعلم أحدنا أن سعادته قد تكمن أحياناً في الالتقاء بأصدقائه أو أبنائه، بينما آخرون تكون سعادتهم في حياة خالية من الديون والمطالبات، وهناك من لا يجد السعادة إلا في المال، وغيره يجدونها في مراقبة زرع ينمو وأشجار تثمر يوزع محصولها

على أهله وأصحابه، وإذا سألت آخر عن قمة السعادة يقول لك إنها بالقرب من زوجة لا تعرف النكد والشجار، وتكمن سعادة آخر في العمل أو التعبد وعمل الخير .

سعادتنا كما قال أحد الكتاب: تنمو في دارنا، ولا تقطف من حدائق الآخرين !

obeikandl.com

(30)

السعادة.. وصفة نادرة

الأديب الإنجليزي المعروف «سومرست موم» يقول: بالقليل من الفهم، وحسن الادراك والتسامح، وبالقليل من خفة الروح والمزاج الرائق، تجد نفسك أسعد إنسان على هذا الكوكب الذي ندعوه الأرض . هل ما يقوله «موم» صحيح؟ إذن فلماذا لايشعر الناس بالسعادة طالما أن الشروط التي تتطلبها هذه السعادة سهلة جداً، وطالما أن مدخلهم لها متطلبات في متناول الجميع وليست معجزة أو تركيبة سحرية؟ لماذا تنحصر أكبر مآسي الإنسان أحياناً في عدم قدرته على إدراك السعادة وتذهب سنوات العمر كلها بحثاً عن هذا الهدف الذي لم تتفق البشرية حتى اليوم لا على حقيقته، ولا على كيفية تحقيقه؟

obeikandl.com

عندما يراك بعض أصدقائك حزيناً أو في حالة ضيق أو ملل، فإنهم غالباً ما يبحثون عن أقصر الطرق لإسعادك فينصحونك بالسفر، أو مشاهدة فيلم سينمائي أو الخروج لزيارة الأصدقاء أو ..، ومع عملك بنصيحتهم إلا أن السعادة تغرد في سماء أخرى تماماً، من دون أن نتمكن من الإمساك بها، ولذلك نظل نحسد الآخرين على سعادتهم، والآخرون يحسدوننا على سعادتنا، وحينما نصل نحن وهم لهذه السعادة فثمة عقبة كبيرة تعترضنا، إنها البحث عن سعادة أخرى أكبر وأجمل، مع علمنا أنه لا شيء يأتي كاملاً.. حتى السعادة !

إذا لم تقنع وتقتنع بما بين يديك فلن تكون سعيداً يوماً، لا في حياتك ولا عملك ولا بما عندك، فالدنيا والسعادة في قلوبنا لا بين أيدينا، انظر إلى نفسك تجد أنك غير سعيد بمنزلك، لأنك تعتقد أن منازل الآخرين أجمل، فهي إذن مصدر لسعادة أكبر كما يتراءى لك، لكنك إذا حاولت التسلل إلى تلك المنازل الجميلة، فإن صدمتك قد تكون أكبر مما تتوقع، حيث ستكتشف في أغلب الأحوال أنها خالية تماماً من السعادة، وإن الذين يتحركون فيها أناس ربما فقدوا سعادتهم منذ زمن ، ومعها فقدوا تفاعلهم مع أبسط الأشياء .

إذن فالسعادة ليست في حدائق الغرباء، إنها في نفس الإنسان وبين يديه،

وحوله، وعبثاً يبحث عنها في الخارج، أصل القضية أن السعادة نسبية، وأن ما يسعدني قد لا يسعد غيري، وأن قليلاً من بعض الأشياء يجعل البعض قانعاً وبالتالي سعيداً، بينما كثير من كل شيء لايصل بآخرين إلى أي درجة من درجات الرضا وبالتالي يبقى ظمأه « أو طمعه فالأمر سيان» على حاله، والظامىء لا يمكن أن يكون شخصاً سعيداً على الإطلاق.

يقول تعالى: (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) ولذلك يوقف البعض حياتهم لتحقيق هذين الهدفين جمع أكبر كمية من المال وبأي طريقة، والإكثار من البنين من دون تعهد بالتربية والاهتمام ، ثم يأتي شاكياً متأففاً باحثاً عن السعادة التي يرفل بها جاره الفقير مع أبنائه الناجحين البارين، بينما فعل هو لأولاده كذا ،واشترى لهم كذا وكذا وأدخلهم أفضل المدارس و... ومع ذلك فإنهم فاشلون وسيئون وعاقون !!

هذا الرجل وغيره كثيرون في هذه الدنيا، تجدهم حولك وفي كل مكان، والحق أن السعادة رزق في نهاية الأمر، يتوافر لدى البعض من دون أن يكون له علاقة بمال أو حسب أو وجاهة، إنه استعداد وجهد إنساني وسمات تتصف بها نفوس مستعدة لقبول هذه المنحة الإلهية وظروف محيطة كثيرة تعينك على السعادة وتمهد لك التمتع بها .

(31)

التداوي بالأحلام

خبر جدير بالتأمل نشرته إحدى الصحف منذ مدة، حول دراسة حديثة أعدتها معاهد جامعة «جورج تاون» الأمريكية، تؤكد على أن بعض البشر بإمكانهم السيطرة على سلبيات واقعهم بواسطة الحلم أو التخيل وخاصة أولئك الناس الذين يتمتعون بخيال جامح وقدرة على التخيل . في ظني الخاص إن هذه الدراسة ما كان يجب أن تخرج من معاهد «جورج تاون»، فنحن كعرب أولى بدراسات سلوكية ونفسية من هذا النوع، خاصة وأن التداوي بالحلم والخيال صار طباً عربياً شائعاً .

وإذا كان في الغرب «بعض» البشر يعالج واقعه بالحلم، فلدينا «كل»

obeikandl.com

البشر يفعلون ذلك، إن التداوي بالحلم ليس علاجاً سيئاً على الإطلاق، فقد أثبتت هذه الدراسة الأمريكية أن البعض يستطيعون تعزيز جهاز المناعة ضد الأمراض عندما يتخيلون أن الخلايا المقاومة للمرض تنشط لتسيطر على الميكروب، وفي مرجعيتنا الأدبية الخاصة بالحلم والتخيل فإننا كثيراً ما نردد: ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل، ذلك أن الأمل هو أول أبجدية الحلم، فمن كان لديه أمل يؤسس حلماً جميلاً فليقبض عليه بكل طاقته، فالمرء بحاجة لحلم كما هو بحاجة لطعام وشراب.

وحينما نفكر في تصرفاتنا وأحوال العالم المحيط بنا، نلاحظ أن التذمر والشكوى واليأس ظاهرة شرسة تتمدد في أغلب الحوارات والأدبيات والأشعار وأفلام السينما وطروحات أهل السياسة، فالكل يقول لك إن الحياة كارثية والزمن رديء والإنسان صار أكثر شراسة من الوحوش و.... الخ، فهل يعبر هذا اليأس عن الحال الحقيقي للواقع الذي نعيشه؟ وهل يعتبر اليأس علاجاً مقبولاً؟.بمعنى أنه مهما كانت أحلامنا عظيمة وجميلة فانها لن تقوى على التصدي لشراسة هذا الواقع؟ هل هذا يعني أننا لسنا بحاجة للحلم اليوم لأن عوائق الواقع أكبر من حكمة كل الأحلام؟

الواقعيون يقولون بأن الأحلام ليست سوى كذبة كبرى أو لعبة أطفال لا أكثر، ولكن من قال إن الواقعية هي الطريقة الوحيدة التي يمكننا بها معالجة

كل السيئات؟ نحن لا نقول إن الخيال والحلم يمكن أن يحلا أزماتنا ومشاكلنا واختناقات العالم من حولنا، لكن هذا كله بحاجة إلى من يعمل على حله بأمل أي بحلم، فحال فقدنا الأمل وصلنا حتما إلى نقطة اللاعمل واللافائدة. ان الآلات الحاسبة ليست مقياس النجاح الوحيد، كما أنها ليست الوسيلة الوحيدة لحساب تكلفة الربح وتكاليف الخسائر، فحتى في أشد حالات المرض، وفي أسوأ أنواع العمليات الجراحية، لا يحب أعظم أطباء العالم هذا السؤال الفج المجرد : ما هي نسبة النجاح؟ فالأرقام أحياناً قد تكون شكلاً آخر لليأس والإحباط إذا احتكمنا اليها هي فقط من دون الأخذ بأن هناك متسعاً من الأمل في رحمة الله، سنجد أنفسنا نزداد إحباطاً وتوتراً في كل حالة تواجهنا الحياة بمحنة فنجري مباشرة إلى الآلة الحاسبة، لماذا لا نجري إلى الحلم بدلاً من ذلك، أليس ذلك أفضل؟ لكن ليس على طريقة الصينيين الذين يعتقدون بأن الأحلام تعني النوم طوال الحياة لا أكثر ! ليس هذا الذي نقصده بالتأكيد، لأن الحالمين ضعيفي الإرادة لا يقيمون بيوتاً صالحة حسب المثل الإنجليزي، واضح أن تراث الشعوب ونظرتها للحلم يختلفان حسب المزاج الحضاري، وغالباً ما تجد الأحلام بيئتها المناسبة في المزاجات الشرقية، بينما لا يفضلها الغربيون كثيراً، لذلك نعتقد أن دراسة التداوي بالحلم دراسة عربية شرقية التوجه والمزاج.

(32)

الحلم المضاد الوحيد للقسوة

لأن الحياة في مجتمع شديد التعقيد، ومتخم بأكبر إشكاليات الحياة كالمجتمع الصيني، فإن الصينيين لا يضيعون الوقت في الأمنيات والأحلام وهم الذين عرف عنهم قولهم : «الإيمان بالأحلام يعني النوم طوال الحياة»، ولا يختلف الإنجليز عنهم، فهؤلاء من الشعوب العملية جداً التي تعتقد بأن «الحالمين لا يقيمون البيوت الصالحة» فإذا حطت بك الرحال في فرنسا وسألت عن وجهة نظر هؤلاء المفعمين بحب الجمال والثقافة والحرية فستجد لديهم قولاً يؤكد بأن «الحلم هو مشروع سعادة لا يمكن أن تبلغه يداك أبداً» .

كنت ما زلت أقرأ كتاب « قاموس الحكم والأمثال » باستماع حقيقي

obeikandl.com

خلال الأيام السابقة، حين توقفت عند موضوع الأحلام، فأنا مازلت أعتقد بأن الحلم شكل آخر للحصانة والحماية ضد كل ما هو شرس ومتوحش وقاتل ! ولذلك يقول علماء النفس «أحلم كثيراً تعش سعيدًا»، ومكمن السعادة في الحلم يأتي من كونه ارتقاء جميلاً نحو حالة أجمل، ولا يرتقي الإنسان إلى الجمال إلا إذا تحرر من أوهامه، ومن قيود الظروف وضغوطات الحاجة والحياة، والآخرين والطبيعة، وغيرها مما يعيقه عن التحليق بعيداً.

الحلم ليس فقط تلك الرؤى والخيالات التي تنهمر من أعماق الروح والعقل واللاوعي لتنبت صوراً ومشاهد تملأ الليالي والمنامات الطويلة، وهو ليس تعبيراً فجاً أو ايحائياً لرغبات مكبوتة، ضاق بها عالم النهار والبشر، الحلم رفيق عزيز جميل، ينمو معنا يكون أحيانا بعمر أعمارنا، يصاحبنا منذ لحظة الميلاد وحتى لحظة الرحيل، وكلما كنا أكبر من واقعنا، كانت أحلامنا عصيَّة على حدود الميلاد وحدود الرحيل.

من كان له حلم مهما كان هذا الحلم فليقبض عليه، بروحه وبقلبه، وليحبه كما يحب شجيرة فلٍ عابقة، فالأحلام لا تضيع ولا تذبل، نحن الذين ننسى أن نرشها بالماء كل صباح، ونتناسى أن نقول لها كل يوم: صباح الحب أيها الحلم الجميل.

ليس صحيحا أن الأحلام لا تبني بيوتاً صالحة، المشكلة ليست في الحلم ، فهذا مجرد فكرة نحن الذين نخلقها، المشكلة فيمن لا يعرفون كيف يرسمون أحلاماً بحجم ذواتهم وعلى شاكلة أرواحهم، فإذا غادرتنا أحلامنا ورحلت، فنحن الذين دفعناها للرحيل، أوصلناها درجة اليأس، هي التي لا تتصالح مع اليأس، نحن نتعلق بالأحلام التي تراودنا في منامات المساء الطويلة، ويدفعنا فضول الإنسان العجول لمعرفة الغيب والخوف من المجهول أن نسعى لمعرفة تأويلها لنعرف حقيقة أحلامنا، ونظل نسأل ونمني النفس: هل سيتحقق ما رأيناه أم لا؟ ومتى؟ وكيف؟

هذه حقيقة ثابتة في كل إنسان تقريباً، لا يستطيع أحد أن ينكرها، ذلك أن الاندفاع وراء تفسير الحلم ليس إلا محاولة التماس وتماس مع ما فيها من معان مخبوءة وتنبؤات تكشف حجب الغد وتسكننا برد اليقين الذين نتمناه جميعا.

في ظني الخاص فإن ما يستحق هذا الاندفاع وهذا السعي هو أحلامنا التي ملأنا أنفسنا بها منذ أن عرفنا معنى أن يكون للإنسان حلم يسعى له وبه، هذه الأحلام هي ما تستحق أن نتلامس معها ونسعى لتفسيرها بمعنى تحقيقها ، لنستقوي بها، ولا نترك لأي نوع من الشراسة وقبح الواقع أن

يتسلل إليها أو يكسرها أو يسلبها منا في حالة لا وعي أو غيبوبة، أحلامنا هي حصانتنا ضد الكسل وضد الضعف والقسوة، أما البقية فتأتي دائماً حيث تنهمر البدايات .

obeikandl.com

(33)

في دفتر الوطن ..

الناس في هذه الدنيا بين مشغول بنفسه أو مشغول بغيره عن نفسه، أو مشغول بالدنيا عن كل شيء، فهو يلهث خلف ما يظنه ماء في متاهات السراب، ويمد يده ليمسك بالخيوط التي تتراءى أمام ناظريه، فإذا لا شيء بين أصابعه سوى الريح، والناس ما بين شغلهم وفراغهم مملوءون باللهاث وعشق البحث عن الفرح والبهجة، يظنون السعادة لحظة والهمّ لحظات، فيتساءلون – كأنهم لا يعلمون– ماذا حلّ بالدنيا، ولماذا تغير الناس؟

دفاتر الذاكرة مليئة بالتذكارات والمواقف والمشاهد، ودفتر الوطن موزع بين الجميع، والكل يكتب في صفحاته من يحبه، ومن يتكسب من وراء حبه،

obeikandl.com

ومن يتظاهر بهذا الحب اتقاء، ومن لا يعرف من الوطن سوى راتبه الشهري وما يشبع شهواته ويزيد نرجسيته، ومع ذلك فهذا لا يعني بأن يتوقف المخلصون عن محبة الوطن أو الاهتمام بأصغر شؤونه وأفراحه وهمومه. في دفتر الوطن وجه الأب، وحنان الأم، ولمّة العائلة وأمان الأصحاب، وأولى الخطوات نحو العمر والمدرسة والمعرفة وأشياء أخرى كثيرة جداً، وعندما نفتح هذا الدفتر صباحاً نتذكر صغار الأمس، ورائحة البحر، ونوارس الشاطىء وقواقع البحر الجميل الذي حرمنا منه اليوم والى الأبد وتعود إلى سماء الذاكرة طائرات الورق بذيولها الطويلة حين تعلو وتختفي بعيداً في الأفق فتخفق القلوب الصغيرة متمنية أن تذهب يوما إلى ذلك البعيد !

في دفتر الوطن، صوت جدي الذي أنهك صدره تدخين الغليون، وصوت عصاه التي يتوكأ بها على الزمن وعلى عمره الذي ذهب خطوطاً لا تنتهي على رمال الوطن، ومع ذلك فقد ذهبت الريح بخطوط العمر وذهب الجد وذهبت عصاه وغليونه، ولم يبق منه سوى صوت البحر والشطآن وأسماء مراكب الغوص، وأجيال جاءت لا ندري أحفظت خطوط العمر أم ضيعتها وضيعت العمر؟!

الوطن يعيش ذكرى ألقه في قلوب أبنائه، فهل مازلنا جميعاً نعرف ذلك

الإحساس، الإحساس بأننا جزء من الوطن، أم أننا فقدنا هذا الإحساس كما فقدنا أشياء أخرى كثيرة؟ وماذا عن أبنائنا، هل مازلنا نحكي لهم حكاية الوطن، وحكايات عن الوطن، وحكايات من الوطن؟ أمازال الوطن حكاية الغوص الشاقة ورجال البحر الذين صاروا في الذاكرة كالوشم القديم الغائر؟ أمازال الوطن تلك الأحياء الصغيرة ببيوتها الضيقة وسكيكها الرملية؟ تحكي لي أمي بأن سكيك زمان كانت نظيفة دائماً مع أنه لم يكن هناك عمال بلدية ينظفونها كل صباح، كانت كل امرأة تنظف أمام بيتها حتى تبدو ممرات الفريج «الحي» كلها نظيفة، فأعرف على وجه اليقين بأنهم كانوا على درجة عالية من ثقافة حماية البيئة أكثر منّا نحن اليوم أصحاب الشهادات وخريجي أرقى الجامعات!! وأتساءل: لماذا؟ ما الذي تغيّر؟ وأجيب نفسي: لا شيء، لكن الله يقول: «إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» فماذا تغيّر داخل نفوسنا؟

كم هم رائعون هؤلاء الذين مازالوا يعزفون أغنية الوطن، يرتشفون ملحها وطيبها ويغرسونها نبتة أصلها متجذر في البر والبحر والجبل وفرعها يطاول السماء، كم أنت رائع يا وطني، وكم أنت رائع يا من مازلت تغني لهذا الوطن أغنية البحر والبر والجبل بكل تفاصيلها وتهويماتها وتجلياتها، وإذ

أشم رائحة يدي، فإنني أفاجأ برائحة البحر، ذلك البحر الذي سكنني زمناً قضيت على ضفافه طفولتي وأيام عمري الشفيفة، وإذ أنظر إلى يدي أجد البحر ساكناً في التفاصيل وخطوط اليد كوشم لا يمكن محوه بسهولة .

obeikandl.com

(34)

كذب بطعم البسكويت

لا يوجد شخص كامل أو شخص بلا عيوب، عبارة ترددها صديقتي في الوقت المناسب، حين يخيل لي أنني قد صدمت في شخص طالما تصورت أنه أكبر من العيوب، أو حين أتحدث عن دهشة اكتشافي واحدة من نقائص أعز الأصدقاء، أو حين أبدأ جردة حساب لصالح نفسي معددة عيوب الآخرين في مقابل حسناتي وخصالي الحميدة التي بلا نهاية، عندها فإن هذه العبارة كفيلة بأن تقلب المعادلة أو حتى تقلب الطاولة في وجه أي ممعن في تصديق الكذبة الكبرى : إنه المثالي الأكبر في هذه الدنيا !!

تأتي تلك العبارة لتوقظه وتهزه وتفتح عينيه على الواقع لا أكثر، فلايسعك

obeikandl.com

إذا كنت وجهت لك سوى أن تهدأ ومن ثم تبدأ في تأمل سياق الحكاية ومغزى العبارة التي نردد دائماً ما يشبهها أن « الكمال لله ولا أحد كامل غيره » فلا أحد بلا عيوب، ولأننا جميعاً بشر فينا من الضعف أكثر من القوة ومن الجهل أكثر مما لدينا من العلم ومحكومون بالعجلة أكثر من احتكامنا للتريث والحكمة، فما علينا سوى أن نتمهل قبل أن نحكم على غيرنا وأن نذهب بعيداً في تقبلنا لعثرات الآخرين كي يكون في مقدورهم غفران عيوبنا وغض الطرف عما يصدر عنا ومنا !!

وصلتني منذ أيام هذه الحكاية التي يقول كاتبها « ..عندما كنت صغيراً اعتادت أمي أن تعد لنا طعاماً مميزاً من وقت لآخر، في ذلك المساء وبعد يوم طويل ومرهق قضته في العمل خارج البيت وداخله وضعت أمي طبقاً من البيض والنقانق والبسكويت محروق للغاية على طاولة الطعام أمام أبي، كانت أمسية لازلت أتذكرها بكل تفاصيلها .

أتذكر أنني انتظرت لأرى إن كان أي شخص قد لاحظ ذلك الطعام السيئ، ولكن كل ما فعله أبي كان التقاط البسكويت والابتسام لأمي ثم سألني كيف كان يومي في المدرسة، ولا تعليق آخر، لا أذكر بالتحديد ما أخبرته تلك الليلة، ولكني أذكر تماماً كيف شاهدته يضع الزبدة والمربى على

البسكويت و يأكل كل لقمة منه بتلذذ غريب !!

عندما غادرت الطاولة في تلك الليلة أذكر أني سمعت أمي تعتذر لأبي عن البسكويت المحروق، وكل ما قاله لها : عزيزتي أنا أحب البسكويت المحروق، وفي وقت لاحق من تلك الليلة ذهبت لأقبل أبي وأتمنى له ليلة سعيدة وسألته إن كان حقاً قد أحب البسكويت المحروق، فأخذني في حضنه وقال لي، إن أمك واجهت يوماً شاقاً في العمل اليوم وأنها حقا متعبة، بالإضافة إلى أن القليل من البسكويت المحروق لن يضر أحداً، تلك من الكذبات الضرورية يا ولدي، فالحياة مليئة بأشياء وأناس ليسوا مثاليين، أنا نفسي لست الأفضل في أي شيء .

ما نتعلمه بمرور الزمن هو أن نتقبل أخطاء بعضنا، وأن نحيي اختلافات بعضنا البعض هو واحد من أهم المفاتيح للمحافظة على العلاقات بيننا، حين نغمض عيوننا ونأكل بسكوتاً محروقاً أعده لنا صديق من دون أن نصرخ في وجهه متذمرين ومنتقدين وموبخين فإنه سيكون ممتنا بالتأكيد وسيخجل أن يفعلها ثانية لكنه بالتأكيد سيمرر لك بسكويتاً محروقاً أيضاً إذا أنت فعلت الشيء نفسه!!

لا يجب أن نرهن أصدقاءنا وصداقاتنا وسعادتنا بقطعة بسكويت محروقة أبداً !! .

(35)

الشكوى ...العادة الأزلية

كل شعوب الدنيا تمارس العادة ذاتها حتى لتظنها القاسم المشترك بين بني البشر ألا وهي، الشكوى من كل شيء : من سوء الأحوال المعيشية، من انقطاع التيار الكهربائي، من ارتفاع أسعار الأدوية، من مستوى مدرسي أبنائهم، من جيرانهم، من زحمة السير، أتذكر صديقتي التي ما من مرة اتصلت بها إلا وكانت تعبر أحد طرقات مدينتها المكتظة بالسيارات، فما أن أسألها حتى تنهال حنقاً على الزحام والطرقات والمرور والناس التي لا تعرف استخدام الطريق والسائقين الذين بلا ذوق و... ومثل صديقتي كثيرون وكثيرات يفضلون عبور التفاصيل اليومية بالمزيد من الشكوى التي

هي أضعف الإيمان وأرخص البدائل الممكنة حين لا يكون بيدنا غير ذلك وحين يكون تغيير الواقع شيء من المستحيلات القصوى كالغول والعنقاء والخل الوفي على حد سواء !!

قضيت الأيام الفائتة في لبنان، وهو بلد يعج بالمتناقضات ودواعي الشكوى، فالطرقات ليست على مايرام دائماً ،فهي إما محولة لأغراض الأشغال والتصليحات، أو مقطوعة لدواع أمنية أو مهملة لأسباب طائفية، أما الكهرباء فعبء اجتماعي ومأزق يومي يعيشه اللبناني على حسابه الخاص، أما الإشكالات اليومية بين المجموعة الدينية الفلانية والجماعة الحزبية العلانية ففتيل يؤرق الجميع بلا استثناء وقميص عثمان الجاهز ليرفع في أية لحظة لينفجر بلد يعيش على برميل بارود أزلي، متناقضات لبنان صنعت لبنان، وكونته وهي اليوم تتحكم بسلمه وحربه وقوت أبنائه ومستقبل شبابه، وبدونها لا يكون لبنان أبداً .

قلت بأن لبنان لا يمكن أن ينتقل للضفة الأخرى حيث السلام والاستقرار والتصالح، وحيث تختفي الحفر من الشوارع والسلاح من المخيمات والشتائم من الخطب ومحطات التلفزيون إلا بالعلمانية، فكان الجواب اللبناني : ربما يحدث ذلك بعد ألفي عام، وكأننا عدنا إلى مربع الصفر، فلبنان بدون طائفية أسطورة تشبه المستحيلات الثلاثة : الغول والعنقاء والخل الوفي، لكن

هذه الواقعية ليست من قبيل الشكوى بقدر ما هي من باب العلم ببواطن لبنان على وجه الدقة واليقين .

في لبنان يعرف اللبناني كيف ينتصر على كل الظروف والمنغصات ليعيش كما يجب، فلقد انتصر على حرب عبثية ذبحت لبنان من الوريد إلى الوريد، هجرت شبابه إلى منافي العالم، وأودت باقتصاده وقيمة عملته، وخلفت دماراً لم يعالج حتى اليوم في بناه التحتية وفي نفسيات الناس ومستوى معيشتهم، مع كل ذلك فهذا اللبناني يصحو كل يوم ليقول صباح الخير وليصر على حقه الإنساني في التمتع بصبحية رائقة، وفنجان قهوة زكي الرائحة، إنه إصرار الراغب في الحياة والذي تعلم أن قليلاً من الشكوى لا يضر، ولا يصلح شيئاً بقدر ما ينفس احتقاناته لا أكثر ولا أقل !!

وبالرغم من كل ذلك فاللبناني الذي يشكو واقعه كل لحظة كأي مواطن عربي، لا يشكو من لبنان الوطن أو لبنان الأرض، إنه غالباً ما يشكو من كل الذين يؤذون لبنان، ويسيئون إليه، فلبنان بلد المياه كيف تكون فاتورة المياه فيه بهذا الغلاء؟ ولبنان بلد الخيرات الزراعية كيف ترتفع أسعار منتجاته بلا منطق، ولبنان رفيق السهر وابن الاخضرار كيف تحترق غاباته عشوائياً كل صيف مثلاً، ولبنان الذي علم العالم الأبجدية كيف ينهار نظام التعليم فيه و...؟؟؟ .

(36)

لأنه يقع في ... الشرق

في كتابه « الحب » شرح الدكتور ليو، استاذ التربية وعلم النفس في إحدى جامعات كاليفورنيا بالولايات المتحدة، كيف صعقه خبر انتحار تلك الصبية الجميلة المتفوقة والتي كانت إحدى أكثر طالباته في الفصل نشاطاً وذكاء، تساءل حين وصله خبر انتحارها : لماذا فعلت هذا بنفسها؟ ماذا كان ينقصها؟ وقرر أن يتتبع خيط لغز الانتحار، سأل زميلها، الشاب الذي يحبها، ذهب لوالديها للتعزية والسؤال أيضاً، كما سأل المحققين في قسم الشرطة، ولكن شيئاً لم يتضح، لا أحد يعرف لماذا انتحرت؟ ورقة اعتذار صغيرة كتبتها تعتذر لوالديها على ما سيسببه انتحارها من ألم لهما، هذا كل

ما عثر عليه في سيارتها قرب مكان الحادثة !!

باع الأستاذ سيارته، وسحب رصيده من المصرف، وقدم على طلب إجازة من الجامعة لمدة سنتين، وسافر إلى شرق آسيا، طاف بلداناً عدة هناك بحثاً عن أسئلة حائرة : ذهب إلى أندونيسيا وتايلند وبورما والتبت، مر على مناطق القرى الفقيرة، شاهد الفلاحين والعمال، والأسر التي تعمل في فلاحة الأرض بشكل جماعي، بقي أشهراً طويلة في بورما تحديداً، كانت الفيضانات تغرق الأرض، وجهود الحكومة لإنقاذ الفقراء لا تكاد تذكر، بلا سبب لأنهم فقراء، ولهذا السبب هم ينقذون أنفسهم بذهنية التجمع والجماعة .

ستة أشهر بقيت القرى والناس والمنازل وكل الحياة تطفو على سطح الماء، صنع الناس أطوافاً من أشجار الخيزران، رصوها بجانب بعضها بإحكام وصبر وإتقان، ثم القوها على الماء وسكنوا عليها، مستظلين بقطع بلاستيك كانت تحميهم من المطر، بينما ثلاث إلى 4 أسر تعيش على قطعة الخشب الطافية تلك، وزعوا العمل فيما بينهم، بشكل لم يشعر البروفيسور الأميركي أن هناك أسراً، بل أسرة واحدة، قال في نفسه : هذا ما نفتقده في أمريكا روح الجماعة .

وبعيداً عن الدكتور ليو فقد حكت لي صديقة إن ابنها حين عاد من أمريكا كان يتصرف بشكل غريب وأحياناً مستفز من دون أن يشعر بأي خجل أو ذنب، كان ما يفعله من وجهة نظره صحيحاً وطبيعياً، أما من وجهة نظر والديه وإخوته فأمر معيب جداً، فنحن – كعرب وشرقيين – لا نتصرف بهذه الطريقة، كان يشتري طعامه ويأكله لوحده أمامهم من دون حتى أن « يعزم» عليهم، في المطعم أو المقهى يترك أخته تشتري وتحضر ما تريد وتدفع من دون أن يبادر كرجل شرقي إلى أن يتولى هو إدارة الأمر، وأشياء أخرى مشابهة .. قلت لصديقتي إنها مسألة وقت وسيعود ابنك إلى قواعده الحضارية سالما لا تخافي هذا تأثير أمريكا عليه، لأنه عاش هناك طويلاً وذهب إليها صغيراً .

كمجتمع عربي شرقي مسلم، لنا خصوصيتنا الثقافية وهوية السلوك لدينا أمر في غاية الحيوية وعلينا أن لا نتنازل عنه حتى تحت أي مبرر حتى وإن كانت العولمة والانفتاح والتغيير، لأن اليابان تغيرت وتعولمت وكذلك فرنسا والمانيا والدانمارك والصين، إلا أن الذاتية الثقافية مازالت ماثلة في السلوك الفردي الياباني، في التفاصيل الحياتية للأسرة الصينية، في أفكار الإنجليزي وفي صرامة الألماني الذي ينظر للعولمة الأميركية نظرة عدم رضا أو اعجاب ويشاركه الفرنسي النظرة نفسها .

سلوك أبنائنا ليس خياراً بقدر ما هو مصير مجتمع وهوية أمة .

(37)

لن يحدث بعد ذلك

في كل مرة تضربهم فيها الشرطة بالهراوات ورجال الأمن بالرصاص الحي، ورجال مكافحة الشغب، تركض عصافير الثورة بأقصى سرعتها هرباً من الموت المتربص خلف القبعات الفولاذية والهراوات المتوحشة والقلوب التي غادرتها إنسانية الأخ تجاه أخيه، وسرعان ما يعودون ثانية ليقذفوا المدججين بالحجارة وليلتقطوا هم الرصاص لأنه طعام الحرية الوحيد، إنه منطق الثورات والانتفاضات التي قدر لها أن تنتصر بقبضة حجر، حيث الحجر جزء من أرض الوطن الذي يدافع عنه الشباب، وكأن رسالتهم باختصار تقول: نرميكم بالوطن الذي اشتاق لصباحات مختلفة ولأزمنة أكثر

obeikandl.com

أماناً، ليس لنا سوى الوطن ندافع به عنه، ونحميه بترابه وحجارته، وهذا هو الحب.

في كل مرة تزداد شراسة الموت الذي يوجه إلى صدور الفتية الصارخين باسم الحرية والخلاص، تتوقف قلوب ملايين العرب حول الكرة الأرضية خوفاً وجزعاً، فيستفيقون فجأة إلى وحدة دمهم ووحدة عروبتهم ووحدة حالهم، وأنهم كانوا كلهم في الهم شرق فصاروا كلهم في العروبة ثورة.

في كل مرة يستفيق شعب من غفلته الكبرى ونومته الطويلة يقف السؤال الكبير كمارد: أين كان هؤلاء طيلة هذه السنوات؟ كيف احتملوا الظلم والقهر والزنازين صامتين، إلا من مظاهرة هنا وتمرد هناك؟ ما الذي حدث فجأة ونفخ النار في رماد مواقد الشتاء العربي الطويل؟ بعضهم يقول أجندات خارجية، وبعضهم يقول جماعات محظورة، وبعضهم يتهم إسرائيل، أما أخفهم ظلاً فيتهم الفيسبوك، الفيسبوك إذن هو الذي يقوم بإسقاط الأنظمة العربية هذه الأيام؟ أما أعجبهم رأياً، فذلك الذي يقول إن السبب هو الإعلام الذي فاقم الإحساس بالغربة عند الشباب وكرس لديهم الشعور بعدم الانتماء!! تبدو التفسيرات هزيلة ومتداعية أمام عظمة الإنسان العربي حين يريد الحياة وأمام حجم التغيير الذي حدث في بعض العواصم!!

في كل مرة يزداد فيها القتل والتهديد والبرد والمطر وتستخدم الدبابات

والجمال والبغال والرصاص والقاذفات والمرتزقة، لا يختفي الشباب من الشوارع ولا يجرون الحسابات على طريقة القاعدين في البيوت الغارقين في أرائكهم الوثيرة جدا، يشاهدون الثورة كمن يتابع فيلماً عربياً طويلاً لا يخلو من «الأكشن»، حين لا يختفي الشباب من الطرقات وحين يعاودون الظهور وبكثافة أمام آلات الموت بإصرار نعرف على وجه الدقة أن هذا هو الإيمان!

في كل مرة تتكشف فيها أوراق فساد حكم طويلاً وتوغل وعاث وخرّب، يعرف المواطن العربي لماذا لم ننجز شيئاً في ملف القضية العربية الأولى، ولماذا طبعنا بصفة التخلف ولماذا لا يغادر الوطن العربي حزام الفقر والجهل والأمراض والخلافات والتشرذم؟ ولماذا لا زالت الأمية تتجاوز حاجز الخمسين والستين بالمئة في بعض مدننا؟ ولماذا ينظر إلينا العالم بدونية لأننا لا نسجل في إنجازات البشرية شيئاً يذكر؟ ولماذا ... ولماذا؟

لكن هذا الوطن العصي على كل محاولات الطامعين والمحتلين والغزاة سيبقى عصياً على مشاريع التقسيم التي يروج لها وسيظل على ثقة بأن فجراً آخر قريباً سيطلع على هذه الأمة تستحقه بحكم التاريخ والواقع و المخلصين من الرجال والنساء الذين يعملون لصالح أوطانهم .

(38)

الطغاة .. رجال طيبون !!

المياه كلها بلون الغرق « كتاب فلسفي يستحق القراءة»، حتى وإن اختلفنا مع مؤلفه في بعض المفاصل، فالقراءة اليقينية التي لا تثير عقلك لا تستحق التوقف عندها أو الاعتزاز بمردودها لأنها بلا مردود أصلاً، الكتاب للكاتب الروماني إميل سيوران وهو عبارة عن رؤية فلسفية للعالم وللحياة والسياسة، اقتنيت الكتاب من معرض سابق، قبل حلول الثورات العربية، وأتذكر أن ما أثارني لشرائه ليس اسم المؤلف فأنا لا أعرفه، لكنه الإيجاز المدون على غلاف الكتاب من الخلف، لقد كان جاذباً!

يقول المؤلف « حين يشبع الطغاة شراستهم يتحولون إلى رجال طيبين،

وبالامكان أن تعود الأمور إلى نصابها لولا غيرة العبيد، ورغبتهم في إشباع شراستهم هم أيضاً ...» يعني هل يمكن أن نتخيل القذافي أو حتى رئيس رومانيا الاسبق شاوشيسكو أو... كان بالامكان أن يأتوا وقد أشبعوا غرائز الطغيان لديهم ليقفوا أمام الجموع معلنين توبتهم وبأنهم سيتحولون إلى حكام عدول وطيبين كما وعدوا هذه الجماهير عشية البيان الأول لتوليهم الحكم؟

هل يمكن أن ننظر لفعل الثورة ضد الطغيان بأنه ردة فعل متعجلة من قبل " عبيد " لديهم غرائز طغيان متراكمة ولا بد من إشباعها؟ هل يمكن احتساب سيرورة التاريخ في بلدان الثورات – وكل التاريخ هو تاريخ ثورات – على أنها عملية تبادلية بين طغاة حكموا وطغاة حانت لحظتهم التاريخية لاستلام الحكم؟ وأيضاً هل هذه النظرية أو المقولة تشرح سبب عدم الاستقرار والفوضى والميل للطغيان الذي بدأنا نسمعه عن الجماعات التي كانت تعاني من الطغيان فتقمص بعضها الطغيان سواء بالرأي أو بالقرار السياسي مستغلين أنهم جاءوا بانتخابات نزيهة كجماعات الإسلام السياسي مثلاً؟ وهل لو أن الليبراليين هم من استلم الحكم سيختلف المشهد ؟

يقول سيوران «..إن طموح الخروف إلى أن يتقمص دور الذئب هو

باعث أغلب الأحداث فكل من ليس له ناب يحلم به، ويريد أن يفترس هو أيضاً ..» لو أننا فككنا خطاب الطاغية اثناء الثورات لن نجد أثراً لندم ذلك الطغيان الذي مارسه لعقود، بل العكس هو ما سمعناه في كل الخطابات التي تليت على مسامعنا، التهم جاهزة « عملاء، مهلوسون، مندسون، ..» وعلى جانب الجماهير التهم تسد عين الشمس، ولا مجال لندم أو لاظهار الطيبة، فالطيبة ليست معاملاً حقيقياً يمكن الاعتداد به في العملية السياسية وفي البراجماتية السياسية على وجه الخصوص، والثورة وتمرد الجماهير عملية براجماتية بحتة !

هناك من يقول : الجماهير جربت في بدايات كل الثورات مدى استعداد الطغاة ليكونوا طيبين، فقدمت لهم مطالب مختلفة وانتظرت ردات فعل تتسم بالذكاء إن لم تتسم بالخوف على الصالح العام، لكن الاستجابة كانت سلوكاً كاد يكون متطابقاً بين جميع الديكتاتوريات، قولاً وفعلاً، وشراسة، فالكل استخدم في خطاباته المعاني والدلالات نفسها، وماطل بالطريقة نفسها وتغول واستشرس بالطريقة نفسها، إن الذين فككوا الخطاب السياسي العربي أثناء الثورات وجدوه متطابقاً، فأين استعداد الطغاة للتحول للطيبة التي واجهتها الجماهير برغبة خفية في الشراسة وتبادل الأدوار كما

قال بها المؤلف ؟

هذه الثورات وحركة الجماهير تحتاج إلى قراءة تفكيكية متأنية، وتعاملاً حذراً، لأنها من الخطورة بحيث يستحيل تصور مدى ما يمكن أن تصل إليه آثار المواجهات في مجتمعات تأسست على الطغيان وقفزت للديمقراطية من دون مقدمات أو تربية سياسية من أي نوع .

obeikandl.com

(39)

وفاز الإسلاميون ..

بعد الإطاحة بنظام صدام حسين ودخول الحلفاء إلى العراق ومباشرة ما سمي بمشروع «دمقرطة الشرق الأوسط» تم إطلاق قناة الحرة بتمويل من وزارة الخارجية الأميركية لتحل محل القناة العراقية الرسمية أو ما كان يعرف بالتلفزيون العراقي، وبعد الحرة امتلأ الفضاء العراقي بقنوات كلها تقريباً صبت في اتجاه واحد، وكما راجت ظاهرة القنوات المذهبية والطائفية والعرقية، راجت أيضاً ظاهرة التشاتم والتكفير التلفزيوني، ثلاثة رجال أو أربعة لا يملون من تكفير بعضهم بعضاً انطلاقاً من فكرة «الفرقة الناجية» فكل فريق يرى أنه مالك الحقيقة الوحيد وهو الفرقة الناجية ومن عداه في النار !!

obeikandl.com

لم يرد أحد ايقاف هذه الخطيئة الإعلامية، خطيئة الجشع الذي لا يتوقف عن تدمير الآخر والرغبة الملحة في سحقة لأنه مختلف، وخطيئة الغرور الذي صور للكثيرين أنهم يملكون مفاتيح العلم والمغفرة نيابة عن الله، لقد ظن موسى بأنه أعلم من على الأرض فأوحى الله له أن اذهب إلى الرجل الصالح «الخضر» وتعلم منه، إن شهوة الانتقام لدى البعض كانت أساساً لهذا التبجح الذي يلفنا كظلام، كل هذه الخطايا لم يستطع أحد أن يوقفها، فانتشر وباء التشاتم والتكفير والتخوين وبعلانية مؤسساً لفكر إقصائي له رموزه وعقله الأداتي الأبرز : الإعلام !

صار البعض ينظر لهذه القنوات كدليل على دخول العرب عصر الحرية وأنهم بدءوا بالفعل طريق الديمقراطية بهذه العقليات وعبر امتلاك وتأسيس هذه القنوات التي تروج للكراهية بين أبناء الوطن ليل نهار، حتى صار التشدد والتطرف خطاً سياسياً متسيداً للأسف، فتكهربت الأوضاع والعلاقات، وصار السؤال : وماذا بعد ؟

وجاء هذا «البعد» عبر ثورات الياسمين التي نقلت تيارات الإسلام السياسي من وراء القضبان إلى عضوية البرلمانات، ولو أن المسألة ظلت في إطار التنافس بالحجة والعقل لكان صعود الإسلام السياسي مقبولا وفي إطار

المشاركة المطلوبة، ولظل خلاف الليبراليين معه متوقعاً، ولدخل المجتمع العربي في بلاد الثورات مرحلة أخرى من مراحل البناء الممنهج للتجربة الديمقراطية السليمة التي إما أن تكون تربية اجتماعية وفق مؤسسات مقننة كما في الغرب.

وإما أن تكون كما حصل في عالمنا العربي الذي نام على ديكتاتوريات شرسة، ليصحو على ثورات قلبت الدنيا على رؤوس العسكر، لكن التجربة للأسف انتهت إلى خلاف وقتال وشتائم واتهامات بل وأكثر .

الأكثر هو ما يحدث اليوم من صراخ وشتائم وتسفيه على الفضائيات، يقول أحدهم هؤلاء الذين يخرجون على الفضائيات ليسوا سوى الأسوأ، لكن الواقع يضج بنماذج أخرى عقلانية ومنفتحة على الآخر، إذن كيف يتم السماح لمثل هؤلاء بالظهور والحديث باسم فصيل سياسي يحتل اليوم واجهة الأحداث ومقدمة النتائج وسيحكم البرلمان بعد زمن قصير، ما هي الرسالة التي يريد الإعلام أو من يوجه الإعلام أن يوصلها للناس بالضبط؟ أن يخافوا؟ أو يقلقوا على حرياتهم في ظل حكم الإسلاميين؟

أن يهجروا البلد؟ أن يكرهوا بعضهم ويتشاتموا ولا يثقوا في المستقبل؟ أم أن هناك هدفاً أكبر من ذلك؟ كأن نقول ليت أيام الطغاة تعود لنخبرهم بما

فعلت الثورات؟ كما قال العراقيون ولا زالوا ليت أيام صدام تعود ؟

هناك جهد حثيث لتمرير فكرة التنفير من التغيير، وكراهية الثورات لأنها لا تجلب سوى الكوارث !!.

obeikandl.com